

قاضي ومفتي فاس
محمد بن محمد بن مصطفى
المَشْرِفِي
ونداؤه للجهاد ضد الاستعمار

الزاوي الجيلالي المَشْرِفِي*

مقدمة:

بعد الاستعمار الفرنسي للجزائر سنة 1830، انطلقت أولى الوفود المهاجرة إلى شتى المناطق، خاصة منها المغرب الأقصى، الذي شكّل منذ البداية الوجهة الأساسية للمهاجرين الجزائريين. ولقد ازدادت وتيرة الهجرة في السنوات اللاحقة خاصة بعد انهزام الأمير عبد القادر في معركة عين طاقين 1843، هذه الأخيرة شكلت منعطفا حاسما في حياة العديد من الأسر الجزائرية العريقة، مثل أسرة المشارف بمنطقة معسكر. وتعتبر هذه الأسرة من أبرز البيوتات العلمية المهاجرة إلى المغرب. ويعد التقرير الذي أعده ميشو بليير Michaux Bèllere عن هذه الأسرة من أهم التقارير التي نشرت عن تاريخ هذه الأسرة بالمغرب الأقصى.¹ ويتوفر هؤلاء الأشراف، على فتاوى مفيدة اشتملت على عشرين فتوى، وتؤيد تلك الفتاوى ظهائر² الملوك الأتراك، الذين كانوا يستولون على القطر الجزائري، ولما دخلوا إلى المغرب، جددت تلك الظهائر لقوة صحة نسب المشرفيين، من لدن الملوك العلويين المولى عبد الرحمن بن هشام، ثم ابنه المولى محمد، وحفيده المولى الحسن الأول إلى غير ذلك: ويعود أقدم هذه الظهائر إلى القرن الحادي عشر الهجري.³

* - عضو سابق في مجلس الأمة الجزائري، وباحث في التراث.

كما أصدر السلطان عبد الرحمن بن هشام ظهيرا مؤرخا بتاريخ 15 شوال 1217هـ / 18 مارس 1832م، يعفى بمقتضاه الأسر المنحدرة من القطب العلامة عبد القادر المشرفي من أداء الضرائب⁴. وقد جدد هذا الظهير من لدن السلاطين المتعاقبين، وآخرهم السلطان عبد العزيز في 16 شوال 1315هـ / 10 مارس 1898م، وأعطيت الأوامر والتعليمات السلطانية للمسؤولين بفاس بأن يعملوا على الاستفادة من طاقات هذه الأسرة وخبراتها العلمية والعملية وذلك بفتح مجال التشغيل أمام كل مريد وطالب حسب الإختصاص.

وقد حوت هذه الأسرة العديد من العلماء الذين ذاع صيتهم في الأقطار وانتشر، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، الشيخ عمرو التتاري المشرفي شيخ العلامة مصطفى الرماسي صاحب حاشية التتائي، سقاط المشرفي⁵، والشيخ العربي المشرفي المكنى بأبي حامد، والشيخ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الذي نحن بصدد دراسة قصيدته.

إن الحديث عن استقبال المغرب للمهاجرين الجزائريين عشية الاحتلال، ثم بعد انهزام الأمير عبد القادر في معركة عين طاقين، يجزنا إلى الحديث عن الوزن السياسي والعسكري لهذا البلد وقتها.

فإلى غاية الأربعينيات من القرن التاسع عشر، كان المغرب بمثابة قوة لا تقهر في ميزان الدول الأوربية، إلا أن هزيمة وادي إيسلي 1844، أظهرته على حقيقته، وما آل إليه أمره من الضعف والانحطاط.

وتعتبر هذه الهزيمة، هي بداية استتباب الأمور بالنسبة للاستعمار الأوربي، حيث برز إلى الوجود شكل آخر من أشكال الهيمنة الاستعمارية، ونقصد به الحماية القنصلية التي مزقت المغرب لمدة تربو عن النصف قرن، وانتهت أخيرا باحتلاله سنة 1912، هذه السنة التي شكلت خاتمة مطاف بالنسبة لمسيرة طويلة للحماية القنصلية.

وتجدر الإشارة أنه وبعد هذا المصاب الحسيم المتمثل في احتلال المغرب، شكل ذلك موضوعا هاما لعدد من العلماء والدارسين وقتها، ومن جملتها موقف محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي صاحب القصيدة التي بين أيدينا، والتي تعتبر دعوة للتكاتف والتكافل والوقوف صفا واحدا ضد الاستعمار بشتى أنواعه.

التعريف بصاحب القصيدة:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى الأحمر المشرفي⁶، المولود بالكرط⁷ حوالي سنة 1255هـ / 1839م⁸، في فترة تميزت بالمخاض العسير للجزائريين ضد الاستعمار الفرنسي.⁹

وقد هاجر محمد المشرفي إلى فاس، رفقة مجموعة من علماء عائلته في حدود سنة 1260هـ / 1844م، وعمره حينها 05 سنوات.

وقد أورد صاحب كتاب "مصاييح البشرية سلسلة نسبه كما يلي: "والمشرفيون مردّهم إلى جدّهم سيدي علي، بن المشرفي، بن غريب الله ابن علي، بن عبد الرحمان المدعو رحمون، بن مسعود، بن عبد الله، بن يوسف بن عيسى العرهي (العرهبيون) الإدريسي الحسني. دفين الكرط ومؤسس الزاوية العلمية بها- وذريته، وهم على أربعة فروع: أولاد عالم الأعلام سيدي أحمد أبي جلال، وأولاد العلامة سيدي علي، وأولاد العلامة سيدي عيد الله المدعو عبو، وأولاد العلامة سيدي منصور، وينتهي نسبهم إلى عيسى بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثني، بن الحسن السبط، بن علي رضي الله عنه، وفاطمة رضي الله عنها بنت النبي صلى الله عليه وسلم".¹⁰

وبين أحضان مدينة فاس نشأ محمد، وتربى وترعرع، ونهل العلم من المعين الصافي، خاصة في ظل وجود نخبة من خيرة علماء فاس، حيث تدرج في المؤسسات التعليمية بها، خاصة في جامع القرويين، الذي عُرف فيه بالفطنة والذكاء، وقوة الذاكرة، فضلا عن نجابته وتفوقه الدراسي¹¹، تشهد بذلك

عبارات شيخه العربي المشرفي إذ يقول: "محمد بن محمد بن مصطفى الأحمر، حصل الملكة في العلوم. .. فاق أقرانه في فصاحة اللسان... ولا زال صغير السن، كبير القدر في الفن".¹²

ومن أبرز شيوخه الذين تتلمذ لهم هناك: محمد بن المديني جنون والعربي المشرفي وعمر بن سودة المري، وأبو عبد الله المكناسي، ومحمد بن جلال المشرفي. وقد تأثر محمد المشرفي بشيوخه علما ومنهجيا وسلوكيا، خاصة شيخه العربي المشرفي الهجاء الكبير، والشيخ محمد بن المديني جنون، وعن هذين العالمين أخذ تكويننا علميا على طريقة عصره.

وقد عُرف محمد المشرفي بحاسته التاريخية القوية، وتكوينه المعرفي التاريخي الرصين، ولذلك عُدد على أنه من أبرز مؤرخي عصره.

كما أن اشتغاله بالساحة السياسية، جعله شديد الصلة بالفكر السياسي، الذي شارك فيه بفكره وقلمه.¹³

ولما كانت السمعة البارزة على علماء القرويين بفاس، هي كثرة الاشتغال بالفقه المالكي، الذي كان يشرف على تدريسه حوالي خمسة وعشرين فقيها، الأمر الذي سهل لمحمد المشرفي أن يتلقى تكويننا فقهيا متينا، جعله يحتل مكانة مرموقة عين بموجبها قاضيا بالحياينة، ومفتيا لفاس. ولذلك عُدد من أبرز فقهاء ومجتهدي عصره.¹⁴

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، فقد عُرف محمد المشرفي بقوة عارضته الأدبية، وملكته الشعرية الزاخرة، تؤكد ذلك عبارات شيخه العربي المشرفي حيث يقول: "يغوص على درر المعاني، أنجب أهل وقته في علم الأدب نظما ونثرا، قبولا وردا".

توفي محمد المشرفي سنة 1916م، وقد شهد حياة حافلة بالأحداث، قادته إلى العديد من البلدان العربية، رفقة والده العلامة الشهير محمد بن مصطفى المشرفي، إلى البقاع المقدسة، ثم إلى مصر أين وافته المنية.
مؤلفاته:

ترك محمد المشرفي، تراثا تاريخيا، وأديبا، وفقهيا ضخما، يعبر في مجمله عن عميق تبحره في علوم شتى، ومن أهم مؤلفاته:

- 1- الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعدّ مفاخرها غير المتناهية.
- 2- الدرّ المكنون في التعريف بشيخنا سيدي محمد جنون.
- 3- العمدة في ذكر من اشتهر نسبه الشريف بعمالة وجدة.¹⁵
- 4- رحلة إلى مشرع الرمل.¹⁶
- 5- إظهار العقوق في الردّ على من منع التوسل إلى الله تعالى بالنبي والولي الصدوق.¹⁷
- 6- إيقاظ أهل الغفلة والمنام، والنيابة عمن استيقظ ولم يقدر على الكلام.¹⁸
- 7- قصيدة في هجو القاضي محمد بن الرشيد العراقي.
- 8- ديوان شعر.¹⁹
- 9- منهاج البشرى، وسعادة الدنيا والأخرى، والتحذير والإغراء.
- 10- السهام الصائبة لنحر الهفاف السائبة في ردّ دعاويه الكاذبة وكشف سفساطته الفارغة.
- 11- تأليف في الردّ على ابن مهنا.²⁰

تقديم القصيدة:

يرجع تاريخ القصيدة إلى بداية القرن العشرين، وهي من نظم الشيخ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الذي وجه من خلالها نداء للحكام العرب والمسلمين، لإعلاء راية الجهاد عاليا، ونبذ الفرقة والشتات والغفلة.

وتتألف القصيدة من ستة وخمسين بيتا، وصف فيها صاحبها الحالة السيئة والوضعية المزرية التي آل إليها أمر المغرب والمشرق العربي بعد احتلال أجزاء كبيرة منه من طرف الاحتلال الفرنسي.

وقد وصف محمد المشرفي في هذه العجالة، ما اقترفه الاستعمار الفرنسي في حق الشعب المغربي عشية الاحتلال، في ظل الخذلان والذل الكبير للحكام العرب والمسلمين، وانتهى بإقرار حالة اليأس العام الذي طبع الحياة العامة بالمغرب العربي²¹ حيث يقول:

مال علينا ميلا واحدة * حيث عفطنا جملة عن السلاح

إلى أن يقول:

وإن تماديتم على غفلتكم * هلكتم وما أرى لكم فلاح

وقد وجه في الأخير نداء صارخا، يحذر فيه من مغبة الإقرار والرضا

بالاحتلال إذ يقول:

آه على الأسد من نسل قريش آه على الأمير من آل رباح

آه على الأنصار أبكي فقدهم من وضعوا الكفر بنصرهم فزاح

إلى أن يقول:

لا بد من وثوبه دون شعور * كما العقور فعله دون نباح

لا عذر ما تخشونه أهون من * مصابكم إذا أردتم الفلاح

وقد أنهى المشرفي حديثه، بشديد التذمر من الحالة السيئة للعرب

والمسلمين، داعيا الله أن يوقظ همهم، ويعلي كلمتهم، فيقول:

هذا وإني عارف بأنني * أحاطب الموتى بهذا الاقتراح

وإنما تغريدي من شوق الوطن * كتغريد الحمام مقصوص الجناح
وأسأل الله باسمه العظيم * أن يلهم الكلّ لما فيه الصلاح
وأن يقينا شرّ ذلك العدو * وينصر الدين بأهله الملاح
وبشأن هذه القصيدة قال المؤلف: "ولما تقرر هذا وكان، وثبت بمشاهدة
المبان، وأيقنت أنه لا بد من سريانه فيما بقي من الأوطان، بكيت هذا الدين
وحرضت على القيام بشأنه، ووجهت الملامة على أولي الأمر والعلم لاشتغالهم
بالأمور الدنيوية عن نصرته، حيث حركتني الغيرة الإسلامية، وقادتني بزمam الحمية
الوطنية، لمخاطبة الأموات، ووعظهم بما كان من سيرة السلف وفيه لهم نجاة
فقلت وما أسمعت وربما وبخت على ما أنشأت".
والقصيدة كاملة كما يلي:

"وللفقيه العلامة، البحر الفهامة، حامل لواء المجد السني، أبي المعالي سيدي محمد
بن مصطفى المشرفي الحسني، قال لافظ فوه، ولا وجد من يجفوه":
دع عنك داع السُرور والمزاح * واسئلك سبيل من بكى الدين وناح
واحك نساء الحي في لطم الخدود * وضربهم الفخذين والصياخ
وارثه واسمعي جميل وصفه * واندب وغرد في العُدو والرواخ
وإن حزنت أو بكيت فوق ذا * مما أصاب ما عليك من جناح
وقم على ساق محرّضا وقل * دون قتال وطن الإسلام جاح
والدين بالكفر يعالج الضياع * وقد خلا الجو لأولاد السفاح
غابت بواكيه وعزّ ناصره * ليتني ممن مات قبل فاستراح
كيف وقد خيم أرضنا العدو * وباض فيها طيره قهرا وصاح
وقد بدا النقصان من أطرافها * واطمأنت به الفياقي والمراح
خلا له الجو فمدّ رجله * وحطّ رحله ونام في البطاح

- مال علينا ميلا واحدة * حيث غفلنا جملة عن السلاح
واستضعف الإسلام طرا فديني * من أرضه وعمّها بالافتراح
ونحن في ظل الغرور نائمون * على بساط الذل نرجوا الافتضاح
همّتنا مصروفة إلى البنا * والشهوات والملاهي والمزاح
همّته مصروفة في أخذنا * وأرضنا وما حوت من القراح
ولا يُفيد الحدّ دون قوة * فالعهد منه كسرّاب في بطاح
وكم مكيدة له نال بها * ما لم ينله بالسيوف والرماح
آه على الأسد من نسل قريش * آه على الأمير من آل رياح
آه على الأنصار أبكي فقدهم * من وضعوا الكفر بنصرهم فزاح
لو حضروا ما كنت في ضيم ولا * كان لأولي الكفر شبه الامتياح
وقل لأولي الأمر ما هذا الفشل * والمسلمون في نهاية الصلاح
وما بهم قلة ولا جبان * ولا بهم ضعف تسوؤهم جراح
فكم من الابطال في العرب وكم * من الليوث في البرابر صحاح
وكم من الخيل السوابق العتاق * على العدى بها يضيق الانفساح
وكم رجال صابرين صادقين * في الزحف يخشى بأسهم يوم الكفاح
لو كان منهم عسكر لخضعت * له الرقاب وخشاه ذو الوقاح
ولراعى الفرنج يوما بأسه * ولا تضعضع بناؤه وطاح
وجوده بشرطه وضبطه * عز لديننا وغاية المراح
تركتم الجهاد في الغدو واغت * نمّموه في الإيماء بالنكاح
ولو كانت لكم قلوب تفقهون * بها لحزّمت عليكم المباح
ولا خير في العيش مع الذلّ ولا * عيش لروح في الفتى دون ارتياح
والسنة الغراء صارت بدعة * وأحمق عندكم من بها باخ

- وهي أساس كل خير يُرتجى * وهي السياسة العظيمة النجاح
ما خاب قوم سلكوا منهجها * ولا استقام دونها أمر اصطلاح
ولم يفد شيئا من العدو وما * زخرفتموه ويُحكم عند التشاح
والأمر سهل لو نصرتم ربكم * نصركم بوعد جاء كالصباح
فارتقبوا إنجاز وعده إذا * نتم على استعداد في كل رواح
فإنه الحق وذاك شرطه * والشك فيه بعد ذا كفر صراح
فانتصِحُوا وراجعوا كتابكم * وامثلوا نص الأحاديث الصراح
من حاد عن نهجها ظل وزلّ * وخسران الدارين من فعله لاح
فشمّروا لأخذ ثأركم عسى * تهبّ بالنصر عليكم الرياح
أما لكم أسوة فيمن قبلكم * أهكذا المغرب كان مستباح
وقل لأولي العلم ما هذا السجا * أموتى أم نيام أم به شحاح
أنتم أحق بالبكا لأنكم * أنصاره أنتم له نعم الوشاح
وهذا بحر الكفر قد غشيكم * عمّ البرية بموجه وساح
فلو نهضتم لاستقام الاعوجاج * ونلتم من صاحبه كل الرياح
وكنتم النصحاء لله ولرسو * له ولأئمة السماح
وقد رأيتم فعله بغيركم * ونقضه العهود من بعد الصلاح
وإن تماديتم على غفلتكم * هلكتم وما أرى لكم فلاح
لا بد من وثوبه دون شعور * كما العقور فعله دون نباح
لا عذر ما تخشونه أهون من * مصابكم إذا أردتم الفلاح
هذا وإني عارف بأنني * أخطب الموتى بهذا الاقتراح
وإنما تغريدي من شوق الوطن * كتغريد الحمام مقصوص الجناح
وأسأل الله باسمه العظيم * أن يلهم الكلّ لما فيه صلاح

وَأَنْ يَقِينَا شَرَّ ذَلِكَ الْعَدُو * وَيَنْصُرَ الدِّينَ بِأَهْلِهِ الْمَلَائِكُ
وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَى خَيْرِ الْوَرَى * وَآلِهِ وَصَحْبِهِ ذَوِي الصَّلَاحِ

الهوامش:

1. أحمد الشباني الإدريسي، مصابيح البشرية في أبناء خير البرية، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 1987، ص ص: 214 - 214.
2. **الظهير:** يطلق عند المغاربة على رسم السلطان، الذي يصدر من الملك، وعليه طابعه و توقيع. انظر: ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، بيروت: دار الفكر، ط1، 1997م، ص: 320.
3. Michaux Béllere, les musulmans Algériens au Maroc, A.M, 1907, vol 11, pp: 1- 115.
4. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ط1، 1998م، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص: 41.
5. **شيخ الإسلام سقاط المشرفي:** هذا العلامة لما هاجر إلى المغرب الأقصى، أخذ معه 1600 مخطوط، من حوالي 6000 مخطوطة كانت في مكتبته.
- انظر: محمد بن الأمير، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، بيروت: دار اليقظة، ط2، 1964م.
- Michaux Béllaire, op cit p: 48.
6. محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، السهام الصائبة، ص: 237. العربي المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، و48و.
7. **الكرط:** وهي معسكر القديمة وجبل الذهب، التي نزل بها أول باي، وهو محمد بن يوسف، المدعو مصطفى بوشلاغم، التي انطلق منها لتحرير وهران التحرير الأول سنة 1708م. ومما تجدر الإشارة إليه هاهنا أن الشيخ عبد القادر المشرفي الشهير، كان إلى جانب هذا الباي في تحرير وهران.
- وبهذه المدينة، توجد المقبرة الشهيرة، كما أخبر بذلك أبو راس الناصر المعسكري، وتضم عددا كبيرا من الأولياء والعلماء الصحابة الذين دخلوا المنطقة أيام الفتح الإسلامي، وشهداء الطلبة الذين ماتوا في معارك ضد الاسبان.
- كما يوجد بها مقامين، أحدهما يحوي أربعة وأربعين قبرا تعرف بالشاشيات، والمقام الآخر كان يسمى مجلس الصلاح، ويحوي بدوره العديد من قبور علماء أسرة المشارف.
- انظر: Henry Leon fey, Histoire d'Oran , p : 192.

8. عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط1، 2003م، ج2، ص: 07.
9. مصطفى المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعدّ مفاخرها غير المتناهية، تحقيق ودراسة إدريس بوهليلة، المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2005م، ج1، ص: 65.
10. أحمد الشباني الإدريسي، مصابيح البشرية، ص: 86، وص: 213 وص: 251.
11. المصدر نفسه، ص: 65.
12. المصدر نفسه، ص: 67.
13. المصدر نفسه، ص: 68 – 69.
14. المصدر نفسه، ص: 69.
15. محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج2، الفترة المعاصرة 1730 – 1930م، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة الدراسات البيبليوغرافية رقم 01، 1989م، ج2، ص: 232.
16. عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى.
17. الخزانة الحسنية بالرباط.
18. محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1985م، ج2، ص: 36 – 38.
19. عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج2، ص: 393.
20. عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج2، ص: 08.
21. يعتبر محمد بن محمد المشرفي، من أبرز العلماء الذين عارضوا الاحتلال الفرنسي، حيث كان من بين العلماء المهاجرين الذين حضروا اجتماع ردّ الدعاوى الفرنسية لإلحاق المهاجرين الجزائريين (546) شخصا من بينهم علماء، كل باسمه الشخصي) باعتبارهم رعايا لفرنسا. وقد حرر المشرفي نصّ الوثيقة، وأمضى عليها رفقة ابن عمه العلامة محمد بن أحمد المشرفي. انظر: محمد المنوني: "وثيقة عن المهاجرين التلمسانيين بفاس"، دعوة الحق، ص: 104 – 106.